يدعى إليها، فصعدها، فوقف أمام الجمع، فرفع عقيرتــه في شــيئ مــن المرارة والشّكوى، وسمعته يقول ويصول بادئا حديثــه بقــول ا لله عــزّ و جــلّ: (ولا ينبئك مثل خبير)(٦) ثم جاء بالعجائب من المعلومات القيّمــة المرضيــة، عــن الخطّ والخطاطين والمخطوطات، وعــن التــأليف والمؤلفــين والمؤلفــات، وعــن الــورق والوارقــين والمكتبــات مما لم يخطــر ببــال أحــد منّــا، وأعجــب القــوم بالخطيب، وبما جاء به من المعلومات القيّمة النّادرة، واســتمعوا إليــه صــامتين ساكتين كأنّ على رؤوسهم الطيرّ! فهذه كانت هي القطرة الأولى مــن بحر الميمني العلمي، أفاض بها علينا فأفادنا، ومتّعنا، وأرضانا جميعاً!

وقــد اســتمرّ المؤتمــر ثلاثــة أيــام متتاليــة، وكــان نصيــب الأســد مــن إجراءاته للأستاذ الميمني، فقد ترأس عدداً من جلساته، كما ألقى العديد مــن الكلمات بهــذه المناســبات كلّهــا باللغــة الأرديــة، وكنــت حريصــاً علــى أن أستمع إليه وهو يتحدّث بالعربيّة أو يلقــي بهــا كلمــة مــن كلماتــه العديــدة المتكررة، ولكنني لم أسمع منه شيئا بالعربية غير الآيــة القرآنيــة الــتي تلاهــا في المعرض أو الجملة التي نطق بها في الوهلة الأولى وهو ينزل من مركبــه عنــد وصوله إلى حرم الكليّة الشرقية!

وعندما حانت نهاية المؤتمر، وكاد الجمع يتفرق، ليعودوا إلى أهليهم وديارهم، سمعنا خبراً غريباً لم يخطر ببال أحد قطّ ، أو قل: إنه لم يخطــر ببــالي أنا قطّ! سمعنا الخبر الغريب، فأدهشنا وسرّنا في الوقت نفسه، ذلكم الخبر أنّ الأستاذ عبدالعزيز الميمني سيسافر إلى كراتشي لكي يعود إلى لاهور بعد أيام قليلة، وسيقضي بها مدّة من عمره، ماشــاءا لله لــه أن يقضيهــا، أســتاذاً للغــة العربية، ورئيساً لقسمها بالكلية الشرقية، كما قضىبها عدداً مــن الســنوات

قبل أن يبلغ الأربعين من عمره محاضراً للغة العربية بالكلّية الشرقية نفسها، حيث ألّف كتابه الخالد عن أبي العلاء المعري، بعد أن اطّلع على كتب الدكتور طه حسين الأربعة عن المعري، وعلى ما كتبه عنه أستاذه ومرشده المستشرق البريطاني اليهودي (مرجليوث). نعم! قد بلغنا هذا الخبر، وسمعنا به، وشكرنا رئيس جامعة بنجاب آنذاك الأستاذ حميد أحمد خان (م١٩٧٤) على ما اتّخذه من قرار تاريخي، فعرض على الميمني وظيفة الأستاذية ومنصب الرّياسة للقسم العربي، وكان الأستاذ حميد كثير الإعجاب بالأستاذ الميمني، فأحبّ أن يبقى مدّة بالجامعة لكي يشرّفها، ويفيد طلاب العربية بها!

كان هذا الخبر الغريب بشرى سارّة بالنسبة إلى أمثالي من طلاب العربيّة والقائمين بخدمتها في لاهور، كما كان صاعقة نازلة فاجأت بعض النّاس الذين كانوا يتطلعون إلى وظيفة الأستاذية ومنصب الرياسة للقسم العربي، فلم يكن من الممكن أن يعجبهم وجود أستاذ فاضل من علماء العربية المعروفين دوليّا من أمثال الأستاذ عبدالعزيز الميمني، وقد هزّت هذه الصّاعقة النّازلة أوساط الكليّة الشّرقية، وأوساط قسمها العربي خاصة، كما أثارت ضجة في أوساط لاهور العلمية والأدبية، وأقامت الكثيرين وأقعدتهم! فأمّا الرجل الذي كان يتطلّع إلى وظيفة الأستاذية والرّياسة، وكان يعدّها حقّه الموروث دون منازع، فقد أصيب بشيء من المرارة والغضب يشبه الجنون، بل كاد يموت غيظا وكمداً! فذهب إلى منزله، ولم يخرج منه، ولم يحضر إلى الكليّة أيّاماً، يعلم الله عدّتها، وعندما حضر أخذ يهذي، ويسبّ المسؤولين الذين سدّوا عليه طريق التّرقية في زعمه، وقد

استمرت حاله هذه طوال المدة التي قضاها الميمني بالقسم أستاذاً للغة العربية ورئيساً لقسمها بالكلّية!

ومن الغريب المؤسف جدّا أن تلميذ الميمني الخاص الدكتور سيد غضب هو الآخر لما حدث، ولكن لا لأنه لم يكن يحبّ أستاذه، ولم يعجبه تعيينه في القسم ، وإنما غضب الدكتور سيّد واستاء استياءً شديداً، لأنّ رئيس الجامعة، على الرغم من الصداقة بينهما، لم يستشره في الأمر، ولم يخبره به قبل أن يتّخذ القرار بذلك، فإذا هو يعلن استقالته من عمادة الكليّة ومن العمل بالجامعة ، ويغادرها لكي لا يعود إليها أبداً! وأغرب من ذلك أنّ السيّد رئيس الجامعة قد قبل استقالته شاكرا له، وانتهى الأمر!!

وعاد الأستاذ الميمني من كراتشي بعد يوم أو يومين يرافقه أهله، ومعه ما يحتاج إليه من الكتب وما يلزمه من الأثاث، فانضمّ إلى الجامعة أستاذاً ورئيساً للقسم العربي، وبدأنا نبحث له عن السّكن المستأجر المناسب قريباً من الجامعة وعلى نفقتها، وهكذا دارت الأيام دورتها وأعاد التاريخ نفسه، فقد احتلّ الأستاذ الميمني منصب الأستاذ والرئيس لقسم كان قد استقال من وظيفة المحاضر به قبل أربعين عاماً، لأنّه لم يجد فيه جوّا ملائماً، ولم يرله مستقبلاً مأموناً، لأن رئيس القسم في وقته كان يكرهه ويعاديه دون مسوّغ، إذ لا ذنب للميمني غير أن الله سبحانه وتعالى قد وهبه ذكاءً فائقاً وذاكرة نادرة، وامتاز على زملائه جميعاً بالكفاءة والبراعة والقدرة على الحديث بالعربية والكتابة بها! وقد لاقى الميمني – في لاهور مرتين – ما يلاقيه الأذكياء الأكفاء من الهوان والنكران على أيدي أبناء الزمان!

وقد سرّني هذا الوضع، وأحزنني ما حدث في الوقت نفسه، قد سررت لأن رجلاً فاضلاً، بل علماً من أعلام العربية وإماماً من أئمتها في شبه القارة، قد أصبح رئيساً للقسم الذي كنت به محاضراً، وأتيحت لي الفرصة لأن أكون زميلاً للأستاذ عبدالعزيز الميمني، وقد تتاح لي فرصة الإفادة منه، ومن يدري لعلّي قد أكون تلميذاً من تلاميذه! وقد أحزنني هذا الوضع المؤلم أيضاً، لأنني رأيت أن الخلافات بين رئيس الجامعة وبين الدكتور سيّد قد اشتدت، من ناحية، ومن ناحية أخرى هذه العلاقات المتوترة بين الميمني وتلميذه الدكتور سيّد نغصت سرورنا، وأفسدت علينا الجوّ، وفوق ذلك كله، كنت أراني في مأزق خطير ومحنة متأزمة، وذلك لأن صلتي بهؤلاء الرجال الثلاثة قد كانت قوية جدّاً، وكنت أحبّهم جميعاً حبّ المدين الممنون، ومن المعجبين بهم جميعاً! فقد كان السيد رئيس الجامعة الأستاذ (حميد أحمد خان)، رحمه الله، يحبني ويكرمني كثيراً ، وكان معجباً بعربيتي وقدرتي على الحديث والكتابة بها، وكنت أقوم بدور المترجم بينه وبين من يزوره أو يزور الجامعة من الشخصيات العربية بين حين وآخر، كما كان يثق بي، فيطلب إليّ أن أترجم له الرسائل الرسمية أو الخاصّة التي كانت تأتيه من البلاد العربية، وكان يكلفني بإعداد الأجوبة عنها بالعربيّة، وكذلك الدكتور سيّد، رحمه الله، فقد كان، على الرغم من حداثة سنّي وقلّة بضاعتي ونقص علمي، يحبني كثيراً، ويثق بي ثقةً تامّة، فيكلفني بأعمال جسام من مساعدته في الشؤون الإدارية، أو إعداد البحوث والمقالات لمجلة الكليّة، وأمّا الأستاذ الميمني ، رحمه الله، فلا حاجة بي إلى المزيد من الكلام على صلتي به! ولم يعجبني وضع التوتر القائم بينهم، فقررت في نفسي وفي قرارة ضميري أن أستغلّ حداثة سنّي، وأحاول جاهداً تحسين العلاقات بين

الرّجال الثّلاثة، لكي تعود المياه إلى مجاريها، وقد فعلت، ووفقت في مسعاي بعض التوفيق بإذن الله!

ففي هذه الظّروف الحرجة والجوّ المتوتّر تسلّم الأستاذ الميمني الطّاعن في السنّ رياسة القسم العربي، ولاحظت أن بعض أساتذة القسم لم يعجبهم قدومه، وفضّلوا الابتعاد عنه، وتخلّفوا عن مجالسه التي كانت تتفجّر نواحيها بالمعلومات القيّمة المفيدة، والمعارف الواسعة الجمّة عن اللغة العربية وآدابها عبر العصور، وعن كتبها المخطوطة والمطبوعة في مكتبات العالم، ولم يكن غرضه سوى الإفادة، ولم يكن ليهمه شيء غير النهوض بلغة الضّاد والترغيب فيها والدعوة إلى الاهتمام بها وكنت قد أشرت على الأستاذ الميمني أن يحاول تحسين الأوضاع في القسم ، وينشر ألوية التحابب في أجوائه، وأن يقرّب منه المبتعدين عنه، وأمّا أنا شخصياً، فبطبيعة الحال لم أتردد في التّعاون الشّامل معه، وقررت الانضمام إلى صفّه، ولم أتخلف عن مجالسه الأدبية، ولازمته في غدواته و روحاته، والتزمت خدمته ومؤازرته بكلّ ما كان في وسعي ومقدرتي.

وكنت قد عرفت الميمني قبل ذلك (٧) أنه صعب المنال جدّا، ولا يحب التّدخل والخلل في حياته العلمية، ولا يرحب في حلقاته بكلّ من هبّ ودبّ، ولا ينظر إلى كلّ طالب، يلتحق بالقسم الدراسي رسميّاً، أنه تلميذ له بل يراقب الطلاب، ويغربلهم، فيصطفي منهم من يستحقّ اهتمامه وعنايته، ولم أكن أراني أهلاً لذلك، إلّا أنّ حسن الحظ ساعدني فيه، فاكتسبت ثقته، وآمنت بما قاله سيّدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم (إذا أراد الله شيئا هيّأ أسبابه) (٨)، وقلّما تخلّفت عن مجالس الميمني العلميّة التي كان يتحدّث فيها عن الموضوعات الأدبية، وكان يأتي فيها بالعجائب والنوادر من

المعلومات والمعارف ، ويكثر من إنشاد الشعر العربي عن ظهر قلب، ويسرد الأمثال والأقوال، ويحكي الاحوال والأخبار لأدباء العربية وأئمتها ومؤلفاتهم ومظانّها في مكتبات العالم، إضافة إلى ما كنت أفيده منه في أثناء مرافقتي له، وهو يخرج من مكتبه متجهاً نحو موقف الحافلة العامة، ليركبها ويعود إلى سكنه. وكان الميمني، خلال هذه اللحظات العابرة الغالية، لا ينفك يحكي لنا، ويفيض علينا مما كان يحفظه من كنوز العلم الغزير ونفائس الأدب الجمّ الكثير.

وللأستاذ الميمني نكت وطرائف، أنتجتها أسفاره اليومية بالحافلة العامّة، وكنا نطلق عليها عنوان ((الطرائف الميمنية الحافليّة))، إذا صحّ التعبير، فمنها أنّ الأستاذ، رحمه الله، كان مقتصداً، فلم يكن يحب الإسراف، فيفضل السّفر بالحافلات العامّة كلما خرج من المنزل أو المكتب، وأمّا سيارات الأجرة، فكان يرى السّفر بها من التبذير والإسراف، وكان يعدّ ذلك من تدلّل المترفين ولعبتهم، وكانت حافلات لاهور العامّة آنذاك ذات الطّابقين، فكان الميمني يفضل دائماً أن يصعد إلى الطابق الأعلى، ولم يكن يجلس في الطابق الأوّل إلا نادراً!

وخرج يوماً مع حرمه المصون (وكانت سيدة كريمة رحيمة رؤوفة في غاية الكرم والرحمة والرأفة، ولم تكن تخرج إلا نادراً إذ كانت في السبعين أو ما يزيد من عمرها، وكانت تشفق عليّ كثيراً، وترحب بي دائماً كأحد أبنائها كلما زرت الأسرة في بيتها)، فأرادا يوماً أن يركبا الحافلة ذات الطابقين، فألحّ عليها الأستاذ أن ترافقه فيصعدا إلى الطابق الأعلى، ولكنها رفضت، وأصرّت على أن تجلس في الطابق الأسفل! فقال لها مغاضباً وهو

يجلس بجانبها: ((أنت لا تحبين الهواء الطلق والمشاهد المتنوعة الرائعة على جانبي الطريق أيتها المرأة! فيا للخسارة!)).

وخرج من مكتبه يوماً فركب الحافلة، وجلس في طابقها الأعلى، وكان متعباً جداً، وعندما وصلت به الحافلة إلى أقرب موقف من منزله، أراد أن ينزل منها، وكان أحد النشالين يرقبه وينتظر الفرصة، فأدخل النشال يده في جيب الميمني ليسرقه، ولكنه لم يمهله أن يأخذ شيئاً منه، وإنما قبض على ساعده وأخذه أخذ عزيز مقتدر، ولم يخل سبيله حتى أوصله إلى مركز الشرطة، على الرغم من أنّ النشال كان شابّاً يافعاً، وكان يبكي ويصرخ ويرجو ويلح في البكاء والصراخ والرجاء!

ومن نكته ((غير الحافليّة)) أنني زرته يوماً في منزله، فوجدته يدخّن النارجيلة، وعلى وجهه شيئ من الكآبة والغضب، فسلمت عليه كالمعتاد، فردّ عليّ ردّا عاديّاً ثم قال: ((انظر إلى أمّك هذه! قد تضايقت بها كثيراً، فهي لا تزال تبكي وتنتحب منذ مساء الأمس، وعبثاً حاولت أن أهدئ من روعها وأن أقنعها، ولكنها لا تحفل بما أقول!)).

فقلت له: لعلك قد زجرتها أو أسأت إليها يا سيدي! فقال: لم أفعل شيئا من ذلك! فقلت وأنا ألتفت إلى أمنا الرؤوم: مالك يا أم! ماذا حدث بك؟! فقالت وهي تبكي وتنتحب: ((قد جاءنا الخبر من أمريكا يا بني! يقول: إن ابننا عمر، وهو أصغر أبنائي، قد تزوج من فتاة يابانية، وكنا نتمنى أن نزوجه من فتاة من فتياتنا في باكستان، وأن يكون زواجه يوماً مشهوداً، وأن تغمرنا الأفراح من كلّ جانب! إلا أنّ هذه الأماني والآمال كلّها قد بطلت وتحولت إلى حسرات لاذعة.. و.و..)).

فقطع عليها الأستاذ قائلاً: ((انظر إلى هذه المرأة الخرقاء! أهذه مناسبة الحزن ولحظة البكاء أم فرصة الفرح والشكر!؟ الشّابّ قد تزوج من فتاة، أحبها وأحبّته، دون أن يكلّفنا فلساً واحداً وكفى!!)).

وشهدت يوماً مجلسه العلميّ الذي كان يضمّ عدداً من الأساتذة الأفاضل، وكان يحكي لهم ما تعوّد أن يحكي من النّوادر، أو ينشد من الأبيات الشعرية لمن حضر عنده، فحكى لهم قصة من القصص الأدبية الطريفة تتخللها أبيات شعرية، وكنت قد سمعت منه هذه القصة مع أبياتها النادرة، وبالمصادفة ومن حسن الحظ أنني كنت قد حفظت بعضاً منها، وهي التي غابت عن ذاكرة الأستاذ، فاستغلق عليه الكلام، ففتحت عليه هامساً في أذنه دون أن ينتبه إليه أو يشعر به أحد غيري، وسألني بعد أن تفرق الجمع، وخلا لنا الجوّ قائلاً: كيف عرفت هذه القصة ومتى حفظت أبياتها؟ فقلت له: يا سيدي! ما عرفت شيئا، وإنما سمعتها من حضرتك في اليوم الفلاني وفي مكان كذا وكذا، فتذكر فصدقني وأعجبه ما رآه مني، وكان ذلك الانطباع الطيّب الأول الذي أخذه الأستاذ عنّي، ومنذ تلك اللحظة بدأ يظنّ بي خيراً ؛ وكانت نهاية كلامه: ((ذاكرتك قوية!)) وقلت في نفسي: ليست الذاكرة يا سيّدي! وإنما هو فضل الله وحظي السّعيد الذي ساعدني، والله على ما يشاء قدير!!

ثم مضت أشهر عديدة، وأنا والميمني على ذلك النّهج الروتيني والمنوال المعمول به، نغدو ونروح، نجتمع فنتفرق.. نخرج ونتماشى، ونتبادل الحديث العادي حول القسم وإدارته حتى جاءت لحظة حاسمة من صلاتنا وعلاقاتنا تغير بها الوضع، وذلك أنّ حاكم غرب باكستان، الذي كان يتبوأ مقام رئيس كلّ جامعة في الإقليم بحكم منصبه ولا يزال، أبلغ نائب رئيس

الجامعة (وهو الأستاذ حميد الذي مرّبنا ذكره) أنّ شخصية عربية بارزة سوف تخطب جمعاً شعبياً عاماً في لاهور، وسوف تلقي كلمتها باللغة العربية، وأنه على الجامعة أن تكلّف أستاذاً من أساتذة القسم العربي، ليقوم بترجمة فورية للكلمة، وحبذالوقام بذلك الدور الأستاذ عبدالعزيز الميمني، رئيس القسم ، وذلك مما أقلق الأستاذ، لأنه، على الرّغم من غزارة علمه وإتقانه للغة الضّاد، لم يكن يرضى بأن يقوم بمثل هذه الأعمال التافهة! فإذا هو يسألني إذا كنت قادراً على ذلك، فأجبته بقولي: يا سيّدي! سبق أن قمت بمثل هذه التوافه في شتّى المناسبات، فإذا أحببت حضُرتك أن تأمرني بذلك، فلا مانع لديّ، فسرّ الأستاذ جدّا، وأبلغ السلطات أنّ المحاضر الفلاني من القسم سوف يقوم بهذه المهمة.

وأمّا الشّخصية العربية، فقد كانت هى شخصية الشيخ أحمد إسماعيل كفتارو، مفتي سورية الأكبر، الذي كان قد أدلى بتصريح صحفي، أيّد فيه موقف باكستان في حرب ١٩٦٥م التي قامت بين باكستان والهند، وأفتى بأنها جهاد إسلامي حقّا، وأنّ على المسلمين أن يشاركوا فيه ويساعدوا باكستان في موقفها الحقّ العادل، مما جعل حكومة باكستان تمنحه وسام (هلال باكستان، وهو أكبر وسام مدني) تقديراً لموقفه الأخوي النبيل، وعندما جاء سعادة المفتي ليتسلم الوسام، قرّر أهل لاهور عقد جلسة شعبية بهذه المناسبة ليخاطبها حضرة المفتي، فألقى هو كلمته، وقمت أنا بالترجمة الفورية التي كانت ناجحة للغاية، وذلك مما سرّ الميمني وأعجبه جدّا، وكان جالساً أمامي كما اتفقنا عليه ليفتح عليّ إذا ما نسيت أو استعصى عليّ شيئ من الكلام! وعندما انتهت الجلسة، بادرني الأستاذ باسماً متهلّلاً، فعانقني وضمني إلى صدره، فشعرت كأنني انغمست في بحر من

العلم والحنان معاً ! ثم قال، ولا تزال كلماته ترنّ في أذني وتذوب حلاوة في مسامعي: ((قد عرفتك اليوم! قوّاك الله ، وأشكرك على هذا الإنقاذ والإنجاز! وقد كنت أذناً مصغية إليك وإلى حضرة الخطيب الذي، كلما انتهى من دوره وجاءت نوبتك للترجمة، خشيت عليك، ودعوت لك من أعماق قلبي، ليوفقك الله ويعينك، وكنت أتنفس الصعداء كلما انتهيت من الترجمة! إنني أفتخر بك، ويعتز بك القسم، فقد زدت من شرفه، ورفعت من مكانته! أبقاك الله، وجعلك ذخراً للشعب والوطن!)).

فمنذ هذه اللحظة الحاسمة وبهذه المصادفة الطيّبة، نلت اهتمام الميمني وأحرزت ثقته، وهي التي أثرت في نفسه كثيراً إضافة إلى أني كنت أمدّ له يد العون في الأعمال الإدارية أو ما يحتاج إليه في غدواته وروحاته، وبذلك رفع ما كان قد تبقى بيني وبينه من الحجاب والكلفة، وحلّت محلّها الألفة، فجعل يحنو عليّ ويشفق، وكان، كلما زرته في مكتبه أو منزله، يهش لي، ويتهلّل وجهه، ويرحب بي بكلمات حارة رنّانة، وإذا به يوماً يقول لي: ((لم لا تختار موضوعا للدكتوراه، وتسجّل تحت إشرافي!؟)) فقلت له، وقد تدفّق قلبي فرحاً وسروراً، وشعرت كأنّني أرى أحلامي وقد تحقّقت: ((يا سيدي! هذا هو كلّ ما أتمنّاه في حياتي ، وهي بغيتي منذ أمد بعيد، وسأكون أسعد النّاس إذا أتيح لي ذلك!)).

فأعطاني الأستاذ صورة من مخطوط نادر، كان قد عثر عليه خلال تطوافه في مكتبات تركيا الخاصة، وهو كتاب ((حماسة الظرفاء من أشعار المحدثين والقدماء)) لمحمد عبد لكاني الخراساني، ولعله آخر الحماسات الشّعرية العربية اكتشافاً، وكان الميمني يعدّها الحماسة الثانية عشرة بعد

الوحشيات أو الحماسة الصغرى لأبي تمّام الطائي، وهي من بين الكتب الثلاثة الأخيرة التي عثر عليها الميمني، وحققها وقد نشرت وهو حيّ يرزق.

•

فشكرت الأستاذ شكراً جزيلاً على هذا التكرّم، ودخلت مكتبة الجامعة المركزية، فبدأت أقرأ النسخة المصورة لحماسة الظرفاء، فإذا هي تبدأ بقطعة شعرية للشاعر عمرو بن الحارث بن الشريد والد الخنساء، تتكوّن من ستة أو سبعة أبيات، ولم أتمكّن من القراءة السّليمة الصّحيحة لها، إذ كانت مخرومة مطموسة، وتذكرت أن الأستاذ الميمني قد حان خروجه من مكتبه متجهاً نحو موقف الحافلة عائداً إلى منزله، وكان لا بدّ لي أن أرافقه إلى الموقف ، فقمت آليّاً وسارعت إلى الأستاذ، فوجدته قد خرج من المكتب متجهاً إلى المنزل فسلمت عليه، فردّ عليّ ، فبادرني بالسؤال عن حماسة الظرفاء، وكيف وجدتها سهلة أم صعبة؟ فأخبرته الخبر وقلت له: ((يبدولي من الصعب أن أقوم بتحقيق الكتاب الذي لا توجد له نسخة أخرى في العالم غير هذه المخرومة المطموسة، التي لم أتمكّن من قراءة قطعتها الشعرية الأولى!)).

فقال الأستاذ: ((لا تخف ولا تتردّد! هكذا تكون البداية، وكلّما تقدمت في المشوار، وتوغلت في المضمار، مهدّت لك طريقاً وأنست إلى العمل! فهل تذكر شيئاً من كلمات القطعة؟)) فأجبته بقولي: ((نعم فهي للشاعر عمرو بن الشريد، وصدر البيت يبدأ بقوله: ((أرى)) وينتهي عجزه بقوله: ((سليمى مضجعي ومكاني))، ولم أستطع أن أقرأ ما بين هذه الكلمات))، فقال الأستاذ: ((تذكرت الأبيات وعرفت قائلها، فهي لعمرو بن الحارث بن الشريد والد الخنساء، كان قد اقتحم معركة من القتال،

فأصيب بالجروح الشديدة ولكنه لم يمت، وبقي بعد المعركة يعيش حياةً أذلّ وأفظع من الموت، وكانت له أمّ تعرف بأم عمرو وزوجة تسمى سليمى، فسألها بعضهم عن حال زوجها، وكانت قد سئمت من عيادته، وتبرمت من القيام بخدمته، فردّت عليه بقولها: ((لا هو حيّ فيرجى ولا ميّت فيلقى))، فسمع كلامها هذا زوجها الشاعر عمرو بن الشريد فأخذ يقول:

أرى أمّ عمروٍ لا تملّ عيادتي

وملّت سليمى مضجعي ومكاني! (٩)

ثم قال وهو يمشي نحو الموقف : ((والمكان هنا بمعنى الوجود والبقاء، أو الحياة))، ثم أنشد بقية الأبيات! فعدت إلى النسخة المصورة فوجدت أبيات القطعة كما أنشدها الميمني ليس أقلّ ولا أكثر! فعلمت علم اليقين، بل عين اليقين، وتأكدت أنّ الأستاذ الميمني يحفظ الكثير من شعر العرب، وأنه آية من آيات الله في الحفظ والذاكرة!

وحقّا قد راعني ما رأيت وأدهشني ما سمعت، وشجعني ذلك على أن أوجّه سؤالاً شخصياً إلى الأستاذ، فقلت له: ((كم بيتاً تحفظ من الشعر العربي يا سيّدي؟! فقال: ((قد ضعفت ذاكرتي الآن، وذهب عني الكثير ممّا كنت حفظته ، ولم يبقَ لديّ منه إلا سبعون ألف بيتٍ تقريباً!)).

وكان الميمني قد حفظ الكثير من أدب العرب شعراً ونثراً، حتى إنه كان يحفظ بعضاً من دواوين الشعراء والمجاميع الشعرية بكاملها، كديوان المتنبي و ديوان الحماسة لأبي تمّام والمعلقات والمفضليات وغيرها، وكان يدخل الفصل الدراسي دون أن يحمل معه كتاباً منهجيّاً فيقول للطلاب:

((افتحوا الكتب، وليقرأ أحدكم الكلمة الأولى من القصيدة أو القطعة الشعرية))، فكان أحد الطلاب يقرأ الكلمة الأولى أو المصراع الأول، ثم يأتي دور الأستاذ فينشد لهم القصيدة كلّها أو القطعة كلّها عن ظهر قلب، ثم يأتي بخلفيتها التاريخية، ثم يعلّق عليها نقداً وشرحاً، ثم ينصرف!!

ويوم اعتزم الأستاذ أن يغادر لاهور، ويعود إلى مقره في كراتشي – حيث انتقل إلى رحمة الله – أقام الطلاب والأساتذة حفلة التوديع له، فقال فيها أحد زملائنا الكبار الأفاضل (وهو الدكتور ضياء الحق بن الشيخ أصغر علي الروحي، وقد كان الشيخ الروحي هذا المتوفى عام ١٩٥٤م من أصدقاء الميمني المخلصين، وله ديوان شعرٍ عربيّ قد قام بتحقيقه وشرحه والتقديم له كاتب هذه الأسطر، ونشر في عام ١٩٩٢م): ((كنا نسمع ونقرأ في المراجع عن أئمة الحديث وحفّاظه، كالبخاري والحاكم، وعن ذاكرتهم وحفظهم لمئات الألوف من الحديث النبوي، بمتونه وأسانيده، فنستغرب ذلك، وقد لا يصدقه بعضنا، إلا أننا قد رأينا الشيخ عبد العزيز الميمني، ورأينا ما يحفظه من الآداب العربية الواسعة، فصدقناه، وأيضاً نصدق هؤلاء الأئمة الحفّاظ، ووجود الميمني شهادة عدلٍ على ذاكرتهم وحفظهم!))، علماً بأن الحياة في عصرهم لم تكن مزدحمة قلقة مضطربة كحياتنا المعاصرة المزدحمة المضطربة، التي تأتي على قوى الإنسان، وعلى رأسها قوة الذاكرة! ويجدر بنا أن نأخذ بعين الاهتمام وألا يغيب عنّا أنّ هؤلاء الأئمة الأعلام قد كانوا متفرغين منقطعين لخدمة الحديث النبوي الشريف، ولم يكن همهم غير حفظه وروايته، في جوّ هادئٍ نقي بعيد عن القلق والزحام والجوّ الهائج المضطرب!

وعن ذاكرة الميمني القوية قصةٌ أخرى قد سمعتها وأنا في مصر، ذلك أنّ فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر الدكتور عبدالحليم محمود، رحمه الله، الذي زار باكستان مرات، وكنت له مترجماً في كلّ زورة، وفي المرة الأخيرة في ١٩٧٧م، دعاني رسميّاً لزيارة مصر والأزهر الشريف، وأقمت في مصر مدة شهرين ضيفاً خاصّاً لفضيلته، وكتب لي وثيقة تؤهلني للدّخول إلى أيّ مكتبة، والزيارة لأيّ مؤسسة، فأخذوا لي موعداً مع رئيس مجمع اللغة العربية بالقاهرة فالتقيته وزملاءه الأفاضل، وجرى الحديث عن شتّى جوانب اللغة العربية وآدابها. وفي النهاية سألني رئيس المجمع، وكان إذ ذاك الدكتور إبراهيم مدكور، رحمه الله، قائلاً: كم يوما ستبقى في مصر؟ فقلت له: شهرين تقريباً ! فقال: ((إذاً ينبغي أن تتكرر زيارتك للمجمع))، فوافقت فذهبت إليهم بعد أسبوعين أو ثلاثة، فلم أجد أحداً من القوم، وقيل لي: إنّهم ذهبوا إلى مقرّ رئيس الجمهورية حيث دعاهم الرئيس أنور السّادات، وتخلّف عنهم أحدهم، وهو الدكتور شوقي أمين، رحمه الله، فدخلت عليه، فرحبّ بي، فجلسنا نتجاذب ألوان الحديث، فسألني قائلاً: ((إنّ عربيتك لقوية جدّا، فأين تعلمتها؟)) ، فقلت له: ((من سوء حظّي أنني قد حرمت من الدراسة بجامعة عربية أو أن أقرأ على أستاذ عربيّ، بل إنني لم أتعلّم العربية في أي جامعة على أيّ أستاذ، وإنّما تعلمتها بمفردي في بيتي (إذ أنني أكملت دراستي كلّها بالانتساب، ولم أكن طالبا منتظماً في يومٍ من الأيام!) وقد أتقنت عربيتي بالاستماع إلى الإذاعات العربية، ثم إنني كنت أنتهز كلّ فرصة للقاء مع أيّ عربيّ يزور باكستان، فكنت ألتقط المفردات، وأتعلّم نطقها السّليم، إمّا من أفواه هؤلاء العرب الزوّار أو من المذيعين العرب، ولكنني حضّرت رسالة الدكتوراه تحت إشراف الأستاذ عبدالعزيز

الميمني، رحمه الله))، وبمجرد سماع هذا الاسم مني، وثب الدكتور شوقي أمين آليًا يقول في صوت مرتفع، يشوبه شيء من دلال المصريين ودعابتهم مع جيم مصرية: ((لماذا لم تخبرني أنك تلميذ ذلك الجنّي؟)) فقلت له: ((يا سيدي! لماذا سمّيت أستاذي العظيم جنياًّ؟!)) فقال: ((والله لقد كان جنيّاً بالفعل! كان جنّيّ العلم والأدب! كان قويّ الذاكرة واسع الاطّلاع! جاء بنسخة محققة من سمط اللآلي، ونزل عند صديقه الأستاذ أحمد تيمور باشا، والد القصاص الروائي المصري محمود تيمور، في درب السّعادة بالقاهرة، وأدهشنا بمعلوماته القيّمة الواسعة عن المكتبات وبما فيها من الآداب العربية، مخطوطها ومطبوعها، وجاء بالمراجع العربية الغريبة التي لم تخطر ببال أحد منّا، وكان يتحدّث العربية بلهجة ثعلب والمبرد! إنه لم يكن يبدو إنساناً عاديّاً، فسمّيناه جنيّاً! إنه كان من أرض عبقر! وكان جنيّي العلم والأدب حقّا!!)).

وأمّا العربية التي كان الميمني يتحدث أو يكتب بها فهي تشبه في أساليبها بعربية المبرد وثعلب، دون شك . وكانت تزخر حقا بالمفردات الغريبة الوحشية الثقيلة كما يتضح من كتابات الأستاذ التي بين أيدينا، وقد انتبه إلى ذلك غير واحد من الكتاب العرب الأفاضل، ولفتوا الأنظار إليه غير مرة، فمن ذلك أنني شاركت في ندوة عن ((صناعة المعجم العربي)) برباط المغرب في ١٩٨٠م تحت إشراف جامعة الدول العربية، وألقيت كلمة مرتجلة بالعربية في إحدى الجلسات، وعندما انتهت الجلسة، سألني الدكتور عبدالله عباس الندوي السؤال نفسه الذي وُجه إلي وأنا في مصر، فأجبته مفتخراً: ((أنا تلميذ الأستاذ عبدالعزيز الميمني))، فقال الدكتور الندوي: ((قد رأيت أستاذك، وتحدثت معه، واستمعت إليه، وهو يتحدّث